﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ[1] ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ[2] ﴿٩٨﴾ ﴾

وهكذا يبيِّن لنا الحق سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب ، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان ، ولكن قوم يونس قبل أن تأتي بشائر العذاب والبأس أعلنوا الإيمان فَقَبِل الحق سبحانه إيمانهم ؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده.

فمَنْ وصل إلى العذاب ، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَلُ منه ، ومن أحس واستشفّ بواكير العذاب وآمن فالحق سبحانه وتعالى يقبله.

وكلمة «لولا» إذا سمعتها فمثلها مثل «لوما» ، وإذا دخلت «لولا» على جملة اسمية فلها حكم يختلف عن حكمها لو دخلت على جملة فعلية ، فحين تدخل على جملة اسمية مثل: «لولا زيد عندك لأتيتك» تفيد أن امتناع المجيء هو بسبب وجود زيد ، لكنها إن دخلت على جملة فعلية فيقال عنها: «أداة تحضيض وحَثّ» مثل قول الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

---

(١) لولا : حرف شرط لا يعمل ويدل على امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجملة الشرط (اسمية) ويحذف الخبر وجوباً إذا كان كوناً عاماً وإذا وليها مضمر يكون ضمير رفع منفصل [القاموس القويم] .

(٢) ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ : يقول عز وجل: لم تكن قرية آمنت فنفعها الإيمان إذا نزل بهم بأس الله ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ قيل: إنهم لما أظلهم العذاب ، وظنوا أنه قد دنا منهم ، وفقدوا يونس ، قذف الله في قلوبهم التوبة ، وفرّقوا بين كل أنثى وولدها ، وعَجُّوا - أي: رفعوا صوتهم بالتلبية - إلى الله أربعين ليلة ؛ فلما عرف صدق توبتهم كشف عنهم العذاب. ﴿ .. وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾: لم نعاجلهم بالعقوبة ، واستمتعوا بآجالهم في الدنيا ، إلى حين مماتهم ووقت فناء أعمارهم. [مختصر تفسير الطبري: ص ٢٤١ ، ٢٤٢].

أى: أنه كان يجب أن ينفر من كل طائفة عدد ليتدارسوا أمور الدين.

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ ..(٩٨) ﴾ [يونس]

أى: أنه لو أن هناك قرية آمنت قبل أن ينزل بها العذاب لأنجيناها كما أنجينا قوم يونس، أو كنا نحب أن يحدث الإيمان من قرية قبل أن يأتيها العذاب.

إذن: فقوم يونس هنا مُسْتثنون؛ لأنهم آمنوا قبل أن يأتيهم العذاب.

وهناك آية أخرى تتعلق بهذه القصة، يقول فيها الحق سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ[1] (١٤٤) ﴾ [الصافات]

أى: أن الذى منع يونس عليه السلام أن يظل فى بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحق سبحانه الاستثناء الذى حدث لقوم يونس حين يقول:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

---

(١) المسبحون: هم المصلّون لله تعالى، قبل البلاء والعقوبة التي نزلت به. وقيل: المسبحون: هم الذاكرون، بقوله كثيراً فى بطن الحوت: ﴿ .. لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].

﴿ .. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]: لصار بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. [مختصر تفسير الطبرى، وتفسير الجلالين].

أى: أن الإيمان نفع قرية قوم يونس قبل أن يقع بهم العذاب.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿.. لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

ونحن نعلم أن كلمة «قرية» تعنى: مكاناً مُهيّأ، أهله متوطنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائر فى أى وقت وجد عندهم قِرىً[1] أى: وجبة طعام.

ونحن نجد من يقول عن الموطن كثير السكان كلمة «بلد»، وهؤلاء من يملكون طعاماً دائماً، أما من يكونون قلة قليلة فى موطن ففى الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليل الذى يكفيهم ويكفى الزائر لمرة واحدة.

وتسمى مكة المكرمة «أم القرى»[2]؛ لأن كل القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها «نينوى» قد حكى عنها النبى ﷺ فى قصة الذهاب للطائف، وهى قرية العبد الصالح يونس بن مَتَّى[3]، وهى فى

---

(١) القرى: هو طعام الضّيفان. والقرية فى اللغة: المصر أو البلد الكبير مثل: مصر، مكة، الطائف، نينوى، وغيرها مما أشار إليه القرآن، فقد وردت كلمة «القرية» فيه بهذا المعنى (٣٧ مرة) غير المثنى منها (١) والجمع (١٩) مرة.

(٢) قال عنها الحق سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٩٢)﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٧)﴾ [الشورى].

(٣) وذلك أن رسول الله ﷺ قابل غلاماً نصرانياً لعتبة وشيبة ابنى ربيعة يقال له عداس، فعندما هَمَّ رسول الله ﷺ بالأكل من عنب بستانهما قال: باسم الله. ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له ﷺ: ومن أهل أىّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى، فأكبّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه ويديه وقدميه. أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/ ٤٢١).

العراق ناحية الموصل ، ويونس هو من قال عنه الله سبحانه:

﴿وَذَا النُّونِ [1] إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ..(٨٧)﴾ [الأنبياء]

وكلمة «مغاضب» غير كلمة «غاضب» ، فالغاضب هو الذى يغضب دون أن يُغضبه أحد ، لكن المغاضب هو من أغضبه غيره.

وكذلك كلمة «هجر» ، ومهاجر ، فالمهاجر هو من أجبره أناس على أن يهاجر ، لكن من هجر هو من ذهب طواعية بعيداً.

والمغاضبة - إذن - تكون من جهتين ، وتسمى «مفاعلة».

والحق سبحانه يقول:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء]

وسُمِّى سيدنا يونس عليه السلام بذى النون ؛ لأن اسمه اقترن بالحوت الذى ابتلعه.

وكلنا نعرف القصة ، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به فى البداية ؛ لأن الرسول حين يجىء إنما يجىء ليقوِّم الحياة الفاسدة ؛ فيضطهده من يعيشون على الفساد ؛ لأنهم يريدون الاحتفاظ بالجبروت الذى يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس ، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس - عليه السلام - خرج مغاضباً ، أى: أنهم أغضبوه.

والمغاضبة - كما قلنا - من المفاعلة وتحتاج إلى عنصرين ، مثلما أوضحنا أن الهجرة أيضاً مفاعلة ؛ لأن الرسول ﷺ لم يهجر مكة ، بل ألجأه قومه إلى أن يهاجر ، فكان لهم مدخل فى الفعل.

---

(١) النون: الحوت. و(ذو ، ذا ، ذى) بمعنى: صاحب. أى: صاحب الحوت ، وهو يونس عليه السلام.

وأبو الطيب المتنبي [1] يقول في هذا المعنى:

إذَا ترحَّلت عن قومٍ وقد قَدروا ... ألاَّ تُغادرِهم فَالرَّاحلِون هُمُ

أي: إن كنت تعيش مع قوم، وأردت أن تفارقهم وقد قدروا أن تعيش معهم، فالذي رحل حقيقة هم هؤلاء القوم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً:

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ..(٨٧)﴾ [الأنبياء]

أي: أنه رجَّح أن الحق سبحانه لن يُضيِّق عليه الأرض الواسعة، وسيهيىء له مكاناً آخر غير مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم.

وكان من المفروض أن يتحمل الأذى الصادر منهم تجاهه، لكن هذا الظن - والظن ترجيح حكم - يدلنا على أن معارضة دعوته كانت شديدة تُحْفظ [2] وتملأ القلب بالألم والتعب.

وكان عليه أن يُوطِّن نفسه على مواجهة مشقات الدعوة.

والقرية التي أرسل إليها يونس عليه السلام هي قرية «نينوى»، وهي التي جاء ذكرها في أثناء حوار بين النبي ﷺ والغلام النصراني «عداس» الذي قابله ﷺ في طريق عودته من الطائف.

---

(١) هو: أحمد بن الحسين المتنبي، شاعر حكيم، ولد بالكوفة عام ٣٠٣ هـ، ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. توفي مقتولاً بالنعمانية ببغداد عام ٣٥٤ هـ عن ٥١ عاماً (الأعلام للزركلي ١/ ١١٥).

(٢) تحفظ: تغضب. والحفيظة: الغضب. ويقال: إن الحفائظ تذهب الأحقاد: أي: إذا رأيت حميمك يُظلم حميت له، وإن كان عليه في قلبك حقد. [اللسان مادة حفظ].

وكان النبى ﷺ قد ذهب إلى الطائف ليطلب من أهلها النصرة بعد أن آذاه قومه فى مكة فلم يجد النصير [١]، وجلس النبى ﷺ قريباً من حائط بستان.

فلما رآه صاحبا البستان - عتبة وشيبة ابنا ربيعة - وما لقى من السفهاء؛ تحركت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً، يقال له عَدَّاس، فقالا له: خُذْ قطْفاً من هذا العنب، فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عَدَّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال له: كُلْ، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أىِّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟». قال: نصرانى، وأنا رجل من أهل نينوى؛ فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس ابن مَتَّى»؛ فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبى»، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقَبِّل رأسه ويديه وقدميه.

ولما سأل صاحبا البستان عدَّاساً عن صنيعه هذا. قال لهما: لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبى [٢].

(١) لما يئس رسول الله ﷺ من قومه بمكة الذين آذوه وآذوا المسلمين لجأ إلى «الطائف» يطلب نصرة «ثقيف» وكلمهم وعرض عليهم الإسلام، فما كان منهم إلا أن رفضوا الأمر، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. ورجع عنه سفهاء ثقيف، فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه. وهنا دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل علىَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك». [السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٤١٩، ٤٢٠]. بتصرف.

(٢) انظر: تفصيل هذه القصة فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩ - ٤٢١).

ونحن نعلم أن العبد الصالح - يونس عليه السلام - قد تأثر وحزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية ، إلى أن رأوا غَيْماً يملأ السماء وعواصف ، وألقى الله تعالى فى خواطرهم أن هذه العواصف هى بداية عذاب الله لهم [1] ؛ فَهُرِعوا إلى ذوى الرأى فيهم ، فأشاروا عليهم بأن هذه هى بوادر العذاب ، وقالوا لهم : عليكم بإرضاء يونس ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسله ، فآمنوا به ليكشف عنكم الغُمَّة.

وهُرِع الناس إلى الإيمان بالحى الذى لا يموت ، الحىُّ حين لا حىَّ ، والقيوم والُمحيى والمميت.

وذهب قوم يونس عليه السلام لاسترضائه ؛ وحين رضى عنهم بدأوا ينظرون فى المظالم التى ارتكبوها ، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأن فيه حجراً قد اختلسه من جار له [2].

وكشف الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ .. كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [3] وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس]

ومن لوازم قصة يونس عليه السلام ، ليست المغاضبة فقط ، بل قصته مع الحوت ، فقد كان عليه السلام بعد مغاضبته لقومه قد ركب سفينة ،

(١) وهذا يتوافق مع ما قاله الزجاج : «إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التى تدل على العذاب ، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان» واختاره القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢).

(٢) نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٢) من قول ابن مسعود.

(٣) اختلف المفسرون ، هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى ، أم كشف عنهم العذاب فى الدنيا فقط ؟ على قولين :

* الأول: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا ، على ظاهر الآية الكريمة.

* والثانى : كشف العذاب فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ لقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات] فأطلق عليهم الإيمان ؛ والإيمان منقذ من العذاب الأخروى ، وهذا هو الظاهر ، و الله أعلم. [ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٣٣)].

فلعبت بها الأمواج فاضطربت اضطراباً شديداً ، وأشرفت على الغرق بركابها ؛ فألقوا الأمتعة فى البحر ؛ لتخفَّ بهم السفينة ؛ فاستمر اضطرابها ، فاقترعوا على أن يلقوا إلى البحر مَن تقع عليه القرعة ، فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام.

مثلما نركب مصعداً ، فنجد الضوء الأحمر وقد أضاء إنذاراً لنا بأن الحمولة زائدة ، وأن المصعد لن يعمل فيخرج منه واحد أو أكثر حتى يتبقى العدد المسموح به ، وعادة يكون الخارج من أحسن الموجودين خُلقاً ، لأنهم أرادوا تسهيل أعمال الآخرين.

كذلك كان الأمر مع السفينة التى ركبها يونس عليه السلام ، كادت أن تغرق ، فاقترعوا ، وصار على يونس أن ينزل إلى البحر.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ[1] (١٤١) ﴾ [الصافات]

ونزل يونس عليه السلام إلى البحر فالتقمه[2] الحوت وابتلعه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن وجود سيدنا يونس عليه السلام فى بطن الحوت:

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه:

---

(١) ساهم: قارع ، أى: اشترك فى الاقتراع. المدحضين: المغلوبين إذ وقع الاقتراع عليه. [ابن كثير ٤/ ٢٠ - بتصرف].

(٢) التقمه: ابتلعه فى سرعة. قال سبحانه: ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] ، والمليم: هو مَنْ أتى ذنباً يُلام عليه.

﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..(٩٨)﴾ [يونس]

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أن تراه مُجسَّداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناس فى هوان ومذلة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بد أن عذاب الآخرة أخْزَى وأشدُّ.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿..وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس]

أى : أنهم نَجَـوْا من الهـلاك بالعـذاب إلى أن انتـهت آجـالهم بالموت الطبيعى .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ[1] حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾

والحق سبحانه وتعالى يبيِّن لنا أنه إن قامت معركة بين نبى مرسل ومعه المؤمنون به ، وبين من كفروا به ، فلا بد أن يُنزِل الحق سبحانه العذاب بمن كفروا .

(١) تُكره الناس : تلزمهم وتلجئهم. أى : ليس ذلك عليك يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بل الله تعالى يُضل من يشاء ويهدى من يشاء. كما قال تعالى فى ذلك : ﴿ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمَّة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربُّك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأنَّ جهنم من الجنَّة والناس أجمعين (١١٩)﴾ [هود]. وقال تعالى : ﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدى من يشاء .. (٢٧٢)﴾ [البقرة]. وقال تعالى : ﴿إنك لا تهدى من أحببت ولكنَّ الله يهدى من يشاء .. (٥٦)﴾ [القصص] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله سبحانه هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء ، المضل لمن يشاء ؛ لعلمه وحكمته وعدله - سبحانه . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤٣٣] بتصرف .

وإياك أن تفهم أن الحق سبحانه يحتاج إلى عبادة الناس ؛ لأن الله عَزَّ وجل قديم أزليٌّ بكل صفات الكمال فيه قبل أن يخلق الخلق ، وبكماله خلق الخلق ، وقوته سبحانه وتعالى فى ذاته ، وهو خالق من قبل أن يخلق الخلق ، ورازق قبل أن يخلق الرزق والمرزوق ، والخلق من آثار صفات الكمال فيه ، وهو الذى أوجد كل شىء من عدم .

ولذلك يُسمّون صفاته سبحانه وتعالى صفات الذات ؛ لأنها موجودة فيه من قبل أن يوجد متعلقها .

فحين تقول : حيٌّ ، ومُحْيِي ، فليس معنى ذلك أن الله تعالى موصوف بـ «مُحْيِي» بعد أن وجد مَنْ يحييهً ، لا ، إنه مُحيِ ، وبهذه الصفة أحيا .

ولله المثل الأعلى ، وهو سبحانه مُنزَّه عن كل تشبيه : قد نرى المصوِّر أو الرسام الذى صنع لوحة جميلة ، هنا نرى أثر موهبة الرسم التى مارسها ، واللوحة ليست إلا أثراً لهذه الموهبة .

الحق سبحانه وتعالى - إذن - له كل صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق ، وبصفات الكمال خَلَق الخَلْق .

فإياك أن تفهم أن هناك أمراً قد جَدَّ على الله تعالى ، فلا شىء يجدُّ على الحق سبحانه ، وهو سبحانه لا ينتفع من خلقه بل هو الذى ينفعهم .

ونحن نعلم أن الإيمان مطلوب من الإنسان ، وهو الجنس الظاهر لنا ونحن منه ، ومطلوب من جنس آخر أخبرنا عنه الله - تبارك وتعالى - وهو الجن [1]

(١) وذلك فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات] .

وأما بقية الكون فمُسبِّح [1] مؤمن بالله تعالى ، والكون عوالم لا حصر لها ، ولكلٍّ نظام لا يحيد عنه.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يُدخل الثقلين - الإنس والجن - فى نظام التسخير ما عَزَّ عليه ذلك ، لكن هذا التسخير يثبت له القدرة ولا يثبت له المحبوبية.

ولذلك ترك الحق سبحانه الإنسان مختاراً ليؤمن أو لا يؤمن ، وهذا ما يثبت له المحبوبية إن جئته مؤمناً ، وهذا يختلف عن إيمان القَسْر والقهر ، فالإيمان المطلوب من الإنسان أو الجن هو إيمان الاختيار.

وأما إيمان القسر والقهر ، فكل ما فى الكون من عوالم مؤمن بالحق سبحانه ، مُسبِّح له.

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾
[الإسراء]

وهذا ليس تسبيح [2] دلالة ورمز ، بل هو تسبيح حقيقى ، بدليل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإن فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه

---

(١) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]. ويقول تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر].

(٢) تسبيح الدلالة والرمز نلحظه يقيناً فى حركة الجماد وحركة ونمو وتنفس النبات ، وحركة ونمو وتنفس وغريزة الحيوان ، وحركة ونمو وتنفس وتعقل الإنسان ؛ فكل حركة لها محرك ، وفى الحركة تسبيح ، وفوق ذلك نجد للأرض والسماء بكاء فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان] ، والبكاء يصدر عن عاطفة والعاطفة تصدر عن علم ، وهذه المراتب تسبيح بحقيقة لا يدركها عقل وقد يحسُّها قلب.

عَلَّم سليمان عليه السلام منطق الطير [1] ، وسمع النملة تقول:

﴿ ..يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

والهدهد قال لسليمان عليه السلام ما رآه عن بلقيس ملكة سبأ:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

إذن: فكل ما في الكون مُسبِّح لله تعالى ، يسير على منهجه سبحانه ما عدا المختار من الثقلين: الإنسان والجان ؛ لأن كلاً منهما فيه عقلٌ ، وله مَيْزة الاختيار بين البدائل.

ومن عظمة الحق سبحانه وتعالى أن خلق للإنسان الاختيار حتى يذهب المؤمن إليه اختياراً ، ولو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجبر الإنسان على الإيمان لَفعلَ.

أقول ذلك حتى لا يقولن أحد: ولماذا كل هذه المسائل من خَلْق وإرسال رُسل ، وتكذيب أناس ، ثم إهلاك المكذِّبين ؟

ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

---

(١) قرب العزة سبحانه يقول عن سليمان عليه السلام: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل].

إذن : فالحق سبحانه خلق الإنسان وسخَّر له كل الأجناس ، ولم يجبره على الإيمان ، بل يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ [1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

وكان رسول الله ﷺ مُحبّاً مخلصاً لقومه وعشيرته ، وذاق حلاوة الإيمان ، وحزن لأنهم لم يؤمنوا ، فينبهه الحق سبحانه وتعالى أن عليه مهمة البلاغ فقط ، فلا يكلّف نفسه شَططاً [2].

والحق سبحانه وتعالى شاء أن يجعل للإنسان حقَّ الاختيار وسخَّر له الكون ، ومن الناس من يؤمن ، ومن الناس من يكفر ، بل ومن المؤمنين من يطيع مرة ، ويعصى أخرى ، وهذه هى مشيئة الحق ليتوازن الكون ، فكل صفة خيِّرة إنْ وجد من يعارض فيها فهذا ما شاءه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، فلا تحزن يا رسول الله ؛ فالحق سبحانه وتعالى شاء ذلك .

وإنْ غضب واحد من أن الآخرين لم يعترفوا بصفاته الطيبة نقول له : إن الحق سبحانه هو خالق الكون وهو الرازق ، قد كفروا به وألحدوا ، وجعلوا له شركاء ، فتَخلَّقوا بأخلاق الله ؟

ولذلك قال الحق سبحانه :

---

(١) باخع : أى : مهلك نفسك ، أى : مما تحرص وتحزن عليهم لعدم إيمانهم . وهذه تسلية من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار . كما قال تعالى : ﴿ فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. (٨) ﴾ [فاطر] . وكقوله سبحانه : ﴿ فلعلَّك باخعٌ نَفْسَكَ علَىٰ آثارهِمْ .. (٦) ﴾ [الكهف] .
قال مجاهد وعكرمة وآخرون : باخع نفسك : أى : قاتل نفسك . وقد قال الشاعر :

ألا أيهذا الباخعُ الحزْنُ نفْسه … لشىء نحتّه عن يديه المقَادِرُ

[ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٣٣١)] بتصرف .

(٢) الشطط : الجور ومجاوزة القَدْر فى كل شىء ، والمقصود : لا تظلم نفسك ، ولا تتجاوز الحد فى الحزن عليهم . ومنه قوله تعالى عن الخصمين اللذين طلبا حكم داود بينهما ، فقالا له : ﴿ .. فاحكُم بيْننا بالْحقّ ولا تُشْطِطْ واهْدنا إلَىٰ سواء الصِّرَاط (٢٢) ﴾ [ص] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

إنه سبحانه وتعالى يريد إيمان المحبة وإيمان الاختيار .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ (١) عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

هكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أن أحداً لا يؤمن إلا بإذن من الله تعالى ؛ لأن معنى أن تؤمن أن يكون إيمانك إيمان فطرة نتيجة تفكُّر في سماء ذات أبراج (٢) ، وأرض ذات فِجَاج (٣) ، وبحار تَزْخر (٤) ، ورياح تَصْفِر ، كل ذلك يدل على وجود الخَالق سبحانه .

لكن أتَرَكَ الله سبحانه وتعالى الناس للفطرة ؟

---

(١) الرجس : الخبال والضلال . [ابن كثير ٢/ ٤٣٣] . قال الزجاج : الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل ، فبالغ الله تعالى في ذم هذه الأشياء وسمَّاها رجساً . وللرجس معان أخرى ، فهو العذاب كالرِّجز ، وهو المأثم وهو الشك في مثل قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب] .

(٢) الأبراج : جمع برج . وهى منازل الأفلاك في السماء أو هي الكواكب . وقيل : هى النجوم . [انظر لسان العرب : مادة برج] .

(٣) فجاج : جمع فج . وهو الطريق الواسع بين جبلين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) ﴾ [نوح] . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) ﴾ [الأنبياء] . وقال تعالى في صيغة المفرد : ﴿ .. وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] .

(٤) بحار تزخر : أي : كثر ماؤها وارتفعت أمواجها . وزخر القوم : جاشوا لنفير أو حرب . [لسان العرب ، مادة : زخر] وهذه الجمل من خطبة خطبها قُس بن ساعدة الإيادى في الجاهلية ، كان أولها : « أيها الناس اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت » انظر : البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٣٠٨) .

لا ، بل أرسل سبحانه لهم الرسل ليذكّروهم بالآيات الموجودة فى الكون ، ولينتبه الغافل ؛ لأنه سبحانه لا يريد أن يأخذ الناس على حين غفلة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ..لَمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام]

لذلك ينبههم الحق سبحانه بأن هناك أشياء كان يجب أن تُذكر ، وكأن الحق سبحانه يُبيِّن لنا : إياكم أن تفهموا أن أحداً يخرج عن مُلكى إلا بإرادتى ، فأنا بخلقى له مختاراً سمحت له أن يكفر أو يؤمن ، وسمحت له أن يطيع أو أن يعصى .

كل ذلك من أجل أن يثبت لى صفة المحبوبية .

لذلك فلا أحد يؤمن إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، ولا أحد يكفر إلا بإذنه سبحانه ؛ لأن مَنْ خلقه مختاراً عَلِمَ برضاء منه بما يكون من المخلوق ، فالكافر لم يكفر قهراً ، والمؤمن لم يؤمن قهراً من الله سبحانه .

وساعةَ يأتى الرسول ليعرض قضية الإيمان ، يتذكر الإنسان إيمان الفطرة ويقول : لقد جاء هذا الرسول بهذا المنهج ليعدِّل لى حياتى ، فلا بد أن أرْهِفَ(1) له السمع .

وساعة يُقْبل العبد على الله تعالى ، فسبحانه يأذن له أن يدخل إلى حظيرة الإيمانِ .

إن العبد منَّا إذا ما ذهب للقاء عبد مثله له سيادة وجاه ، ويدرك العبد صاحب السيادة والجاه - بفضل من الله - السبب الذى جاء من أجله العبد الآخر ؛ فيقول صاحب السيادة لمعاونيه : لا تُدْخلوه . وهو يقول ذلك ؛

---

(1) إرهاف السمع : الإنصات الشديد . والرهافة فى اللغة : الرقة واللطف . [اللسان : مادة رهف] .

لأن الله سبحانه أطلعه على ما فى قلب العبد الآخر من غلٍّ ومن حقدٍ ومن نفاق.

أما إذا دقَّ بابه عبد آخر، فتجده يأمر معاونيه أنْ يُدخلوه وأن يفسحوا له؛ لأنه علم بما فى قلبه من محبة ورغبة فى صدْق اللقاء والمودة.

إذا كان هذا يحدث بين العباد، وهم كلهم أغيار، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى؟

والله سبحانه هو القائل فى حديث قدسى: «من ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى ملأ خير منه».

ما بالنا بالعبد إذا دخل على الإيمان بالله غير مشحون بعقيدة عدا الله.

إذن: أقْبِلْ على الله سبحانه وعلى ذكر الله، وأنت إنْ ذكرت الله فى نفسك، فالَله يذكرك فى نفسه، وإن ذكرته فى ملأ ذكرك فى ملأ خير منه، فالملأ الذى ستذكره فيه ملأ خَطَّاءٌ، والله سبحانه سيذكرك فى ملأ طاهر.

ويقول الحق سبحانه فى ذات الحديث القدسى[1]: «إنْ تقرَّب إلىَّ شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً».

والذراع أطول من الشِّبر.

ويقول: «وإن أتانى يمشى أتيته هرولة».

فالمشى قد يُتعب العبد، لذلك يُسرع إليه الحق عز وجل، وهو سبحانه بكل ربوبيته ما إنْ يعلمْ أن عبداً قد صفا قلبه من خصومة الله تعالى فى

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)، وتمامه: «أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حيث يذكرنى، والله، لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، من تقرب إلىَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومَنْ تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول».

شىء ، حتى يفتح أمامه أبواب محبته سبحانه ، فيحبِّب فيه خلقه ، ويجعل له مدخل صدق فى كل أمر ومخرج صدق من كل ضيق،وهو الحق القائل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ونلحظ أن الحق سبحانه يؤكد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنه لو شاء لآمن مَنْ فى الأرض جميعاً ؛ ليبيِّن لنا أنه حتى إبليس الذى دخل فى جدال مع الله ، لو شاء الحق سبحانه لآمن إبليس .

وجاء الحق سبحانه بهذا التأكيد ؛ ليُحْكِمَ الأمرَ حول كل خَلْقه ومخلوقاته ، فلا يشذ منهم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ .. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يونس]

أراد الحق سبحانه أن يُنبِّه رسوله ﷺ وكل المؤمنين أنه :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

لأن مطلوبات الدين ليست هى المطلوبات الظاهرة فقط التى تقع عليها العين ، فهناك مطلوبات أخرى مستترة ، فَهَبْ أنك أكرهت قالباً أتستطيع أن تُكرِه قلباً ؟

والحق سبحانه وتعالى يريد قلوباً لا قوالب[1] .

وهكذا لا يصلح الإكراه فى قضية الدين ، ولكن على الإنسان ألاَّ يسحب الإكراه إلى غير موضعه أو مجاله ؛ لأنك قد تجد مسلماً

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٤) وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجه فى سننه (٤١٤٣) ، واللفظ لمسلم. والقلوب لها الوجدان والاختيار والحب والكره ، والقوالب مادة تسير حسب الإدراك الذى انفعل بوجدان ، ووجدان وضع أمامه البدائل ليختار ، ويُسمَّى (النزوع) .

لا يصلّي فينهره صديقه ، فيردّ : لا إكراه في الدين. وهذا استخدام غير صحيح واستدلال خاطئ ؛ لأن الإكراه في الدين إنما يكون ممنوعاً في القضية العقدية الأولى.

ولكن مَنْ أعلن أنه مسلم ، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذا إعلان بالالتزام بكل أحكام الإسلام ، وهو محسوب على الإسلام ، فإنْ أخلّ بحكمٍ من أحكام الإسلام فلا بد من محاسبته.

ولا إكراه في الدين ، فيما يخصُّ القضية العقدية الأولى ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل إلى الإسلام أو لا تدخل ، فإنْ دخلت الإسلام فأنت ملتزم بأحكام الإسلام ؛ لأنك آمنت به وصرْتَ محسوباً عليه ، واحفظ حدود الإسلام ولا تكسرها ؛ لأنك على سبيل المثال - لا قدر الله - إن سرقت ؛ تُقطع يدك ، وإنْ زنيت تُرجَم أو تُجلد [1] ، وإنْ شربت الخمر تُجلد ؛ لأنك قبلتَ قواعد الإسلام وشريعته.

وإنْ رأى واحدٌ مسلماً يسرق ، فلا يقولن إن الإسلام يُسرِق ، ولكن إن رآه يُعاقَب ، فهو يعرف أن الإسلام يعاقب مَنْ يجرم.

إذن : فـ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة]

تخص المنع عن الإكراه على أصل الدين ، ولكن بعد أن تؤمن فأنت ملتزم بفرعيات الدين ، وتعاقب إنْ خرجتَ على الحدود.

والرسول ﷺ يقول : «مَثَلُ القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا [2] على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ،

---

(١) للزنا في شريعة الإسلام عقوبتان : الرجم ، أو الجلد. أما الرجم فيعاقب به الزاني المحصن الذي قد أحصن بالزواج. أما الجلد مائة فهو لغير المتزوج أو لم يسبق له الزواج ، فيجلد مائة جلدة تطبيقاً لقول الله عز وجل : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور].

(٢) استهموا : اقترعوا.

فكان الذين فى أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرُّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنَّا خرقنا فى نصيبنا خُرْقاً ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعاً»[1] .

إذن : فالالتزام بفروع الدين أمر واجب ممن دخل الدين دون إكراه ، وإنْ خدش حكماً من الأحكام يُعاقب .

وهناك ما هو أشدُّ من ذلك ، وهو حكم مَنْ ارتد عن الإسلام ، وهو القتل[2] .

وقد يقول قائل : إن هذا الأمر يمثل الوحشية . فنقول له : إن من التزم بالدين ، إنما قد علم بداية أنه إنْ آمن ثم ارتد ، فسوف يُقتَل ؛ ولذلك فليس له أن يدخل إلى الإسلام إلا بيقين الإيمان .

وهذا الشرط للدين ؛ لا على الدين . فلا تدخل على الدين إلا وأنت متيقِّن أن أوامر الدين فوق شهواتك ، واعلمْ أنك إنْ دخلتَ على الدين ثم تَخلَّيْتَ عنه فسوف تُقْتَل ، وفى هذا تصعيب لأمر دخول الدين ، فلا يدخله أحد إلا وهو واثق من يقينه الإيمانى ، وهذا أمر محسوب للدين لا ضد الدين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ .. ويَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس]

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٩٣) وأحمد فى مسنده (٤/ ٢٦٨) والترمذى فى سننه (٢١٧٣) وقال : حسن صحيح .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه» . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٩٢٢) وأحمد فى مسنده (١/ ٢١٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣) وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) .
- وقد قال رسول الله ﷺ فى حديث آخر عن ابن مسعود : «لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والمفارق لدينه التارك للجماعة» أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

والرجس : هو العذاب ، وهو الذنب ، ويجعله الحق سبحانه وتعالى على الذين لا يعقلون ؛ لأن قضية الدين إذا طُرِحَتْ على العقل بدون هَوىً ؛ لا بُدَّ أن ينتهي العقل إلى الإيمان .

ولذلك تجد القمم الفكرية حين يدرسون الدين ؛ فهم يتجهون إلى الإسلام ؛ لأنه هو الدين الذى يشفى الغُلَّة [1] ، أما الذين أخذوا الدين كميراث عن الآباء ، فهم يظلون على حالهم .

وبعض القمم الفكرية فى العالم التى اتجهت إلى اعتناق الإسلام ، لم تتجه إليه بسبب رؤيتهم لسلوك المسلمين ؛ لأن سلوك المنسوبين للإسلام فى زماننا قد ابتعد عن الدين .

ولذلك فقد اتجهت تلك القمم الفكرية للإسلام إلى دراسة مبادىء الإسلام ، وفرَّقوا بين مبادىء الدين ، وبين المنتمين للدين ، وهذا إنصاف فى البحث العقلى ؛ لأن الدين حين يُجرِّم عملاً ، فليس فى ذلك التجريم إذنٌ من الدين بحدوث مثل هذا الفعل المجرم ، بدليل تقدير العقاب حسب خطورة الجريمة .

فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا .. (٣٨) ﴾ [المائدة]

إنه الإذن باحتمال ارتكاب السرقة ، وكذلك الأمر بالنسبة للزنا [2] ،

(١) الغلة في اللغة : شدة العطش ، فاستعير لما يتلهف الإنسان لمعرفته ودرسه كالظمآن يطلب الماء .

(٢) يقول رب العزة سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٣٢) ﴾ [الإسراء] . ويقول سبحانه : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين (٢) الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين (٣) والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون (٤) إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم (٥) ﴾ [النور] .

وغيـر ذلك من الجرائم التى جعل لها الحق سبحانه عقوبات تتناسب مع الضـرر الواقع على النفس أو المجتمـع من وقوعها ، فإذا رأيت مسلماً يسرق ، فتذكَّر العقاب الذى أوقعه الإسلام على السارق ، وإنْ رأيتَ مسلماً يزنى ، فَتذكَّر العقوبة التى حددها الحق سبحانه للزانى.

وهكذا الحال فى جميع الجرائم.

وكبار المفكرين العالميين الذين يتجهون إلى الإسلام إنما يدرسون مبادىء الدين مفصولة عن سلوك المسلمين المعاصرين ، الذين ابتعدوا عن مبادىء الدين الحنيف.

وها هو ذا «چينو» المفكر الفرنسي يقـول : « الحمـد لله الذى هدانى للإسـلام قبل أن أعـرف المسلمين ، فلو كنتُ قـد عـرفتُ المسلمـين قـبل الإسلام لكان هناك احتمال لزلزلة فى النفس تجعلنى أتردد فى الدخول إلى هذا الدين الرفيع المقام».

إذن : فإعمال العقل الراقى لا بد أن يؤدى إلى الإسلام لأنه فطرة الله ،والإسلام يُنمِّيها ، ويرتقى بها ، والعقل هو مَنَاطُ التكليف.

والرجس والذنب والعذاب كله إنما يقع على الذين لا يُعْملون عقولهم ، وإعمال العقل المتعقل للقيم ينفى الرجس ؛ لأنهم سيُقبلوَن على التدين بإذن الله تعالى لهم أن يدخلوا على الإيمان به.

وإذا سألنى سائل : ما هو العقل ؟ وما هو مَنَاطُ التكليف ؟

نجد أن كلمة «عقل» مأخوذة من عقَال البعير ، وهو ما يُشَدُّ على رُكْبته حتى لا ينهض ، ويظل ساكناً ، وحَين يريد صاحبه أن يُنهضه فهو يفكُّ العقال.

وأهل الخليج يضعون على رؤوسهم غطاء للرأس (غُتْرة) ويثبتونه بنسيج مغزول على هيئة حلقتين ، ويسمون هاتين الحلقتين «العقال» ؛ لأنه يمنع غطاء الرأس من أن يحركه الهواء ، أو يُطيِّره.

إذن : فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ؛ لأنه سبحانه قد خلق النفس البشرية ، ويعلم أنها تحب الشهوات العاجلة ، فأراد سبحانه للإنسان أن يكبح جماح تلك الشهوات بالعقل.

فحين يفكر الإنسان فى تحقيق الشهوة العاجلة ، يجد عقله وهو يهمس له : إنك ستستمتع بالشهوة العاجلة دقائق ، وأنت قد تأخذها من غيرك ؛ من محارمه أو من ماله ، فهل تسمح لغيرك أن يأخذ شهوته العاجلة منك؟

إذن : عليك أن تعلم أن العقل إنما أراده الله سبحانه لك ليعقلك عن الحركة التى فيها هَوى ، وتحقق بها شهوة ليست لك ، ومغبَّتها [1] متعبة.

ويخطىء مَنْ يظن أن العقل يفتح الباب أمام الانطلاق اللا مسئول باسم الحرية ، ونقول لمن يظن مثل هذا الظن : إن العقل هو مَنَاطُ التكليف ، وهو الذى يوضِّح لك آفاق المسئولية فى كل سلوك.

ومن عدالة الحق سبحانه أنه لم يكلِّف المجنون ؛ لأن حكم المجنون على الأشياء والأفعال هو حكم غير طبيعى ؛ لأنه يفتقد آلة الاختيار بين البدائل.

وكذلك لم يكلف الله سبحانه مَنْ لم ينضج بالبلوغ ؛ لأنه غير مُسْتوف للمَلَكات ، ولم تستوِ لديه القدرة على إنجاب مثيل له.

وقد ضربنا من قبل المثل بالثمرة ، وقلنا : إنه لا يقال إن الثمرة نضجت وصار طَعْمها مقبولاً مستساغاً إلا إذا أصبحت البذرة التى فيها قادرة على

---

(١) غبّ الأمر مَغَبَّتُهُ : عاقبته وآخره . [لسان العرب : مادة (غ ب ب)].

أن تنبت منها شجرة إن زرعناها فى الأرض.

وأنت مثلاً حين تقطع البطيخة ، وتجد لُبَّها أبيض اللون فأنت لا تأكلها ، وتحرص على أن تأكل البطيخة ذات البذر الذى صار أسود اللون ؛ لأنه دليل نُضْج البطيخة ، وأنت حين تأخذ هذا اللبَّ وتزرعه ينتج لك بطيخاً.

إذن : فاكتمال الإنسان بالبلوغ يتيح لعقله أن يَزِنَ السلوك قبل الإقدام عليه ، والتكليف إنما يكون للعاقل البالغ غير المكرَه بقوة تقهره على أن يفعل ما لا يعقله.

أما قبل البلوغ فالتكليف ليس من الله ، بل من الأسرة ، لتدربه على الطاعة.

ورسول الله ﷺ يقول لنا : «مروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع[1]»[2].

وهنا نجد أن الذى يأمر هو الأب وليس الله ، والذى يعاقب هو الأب ، وليس الله ، وما إن يصل الابن إلى مرحلة البلوغ يبدأ تكليفه من الله .

أما إذا جاء مَنْ يُكْرِهه على أن يرتكب معصية بقوة تفوق قوته كأن يمسك (مسدساً) ويقولَ له : إن لم تشرب الخمر أطلقتُ عليك النار ، فهنا يرفع عنه التكليف.

ورسول الله ﷺ يقول فى الحديث الشريف : «إن الله تجاوز عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استُكرهوا عليه»[3].

---

(١) المضاجع : أماكن النوم سواء أكانت فُرُشاً أو غيرها.
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٨٧) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٣) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٠٤٥) والدار قطنى فى سننه (٤/ ١٧٠) والحاكم فى المستدرك (٢/ ١٩٨) وصححه على شرط الشيخين ، عن ابن عباس ، ولكن إسناد ابن ماجه منقطع.

فالعقل - إذن - هو مناط التكليف ، وعمله أن يختار بين البدائل فى كل شىء ، ففى الطعام مثلاً نجد مَنْ يهوى وضع (الشطة) فوق الطعام ؛ لأنها تفتح شهيته للطعام ، وبعد أن يأكل نجده صارخاً من الحموضة ، ويطلب المهضِّمات ، وقد لا تفلح معه ، بل وقد تُفسد له الغشاء المخاطى الموجود على جدار المعدة لحمايتها ؛ فَرُبَّ أكْلة منعتْ أكلات ؛ ولذلك نجد عقله يقول له : احذر من هذا اللون من المشهيات ؛ لأنه ضارٌّ بك .

وهكذا نجد العقل هو الذى يوضح للإنسان نتائج كل فعل ، وهو الذى يدفع إلى التأنى والإجادة فى العمل ؛ ليكون ناتج العمل مفيداً لك ولغيرك باستمرار ، ولم يأتِ العقل للإنسان ليستمرىء به الخطأ والخطايا .

وهكذا نجد أن العقل يدرك ويختار السلوك الملائم لكل موقف ، بل إن العقل يدعو الإنسان إلى الإيمان حتى فى مرحلة ما قبل التكليف ، فحين يتأمل الإنسان بعقله هذا الكون لا بُدَّ أن يقوده التأمل إلى الاعتراف بجميل صنيع الخالق سبحانه وتعالى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١) ﴿١٠١﴾ ﴾

وهنا يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عالم المُلْك الذى تراه ، ولا يتكلم عن عالم الملكوت الذى يغيب عنك ، وكأنك إن اقتنعت بعالم الملك ، وقلت :

(١) قل انظروا ماذا فى السموات والأرض: أمر للكفار بالنظر والاعتبار فى المصنوعات الدالة على الصانع والقادر على الكمال، والآيات هنا بمعنى: الأدلة والبراهين على ألوهية الله ووحدانيته ، والآية تفيد عموم النظر فى ملكوت الله لكل مَنْ أراد أن يتذكر أو يتدبر . والنذر: الرسل، جمع نذير، وهو الرسول ﷺ . عن قوم يؤمنون: أى: عمَّن سبق له فى علم الله سبحانه أنه لا يؤمن. [تفسير القرطبى : ٤/ ٣٣١٤] - بتصرف.